

## علم الأدب المعاصر في روسيا

### وجهة نظر جديدة

=====

إن ما يجري في الحياة الفكرية و الأدبية في روسيا في السنوات القليلة الماضية هو بلا مبالغة - بعث روحي جديد ، إنعكست آثاره على العلوم الإجتماعية من فلسفة و تاريخ و اقتصاد ، و هي العلوم التي طالما عانت من الضغوط الأيديولوجية و الحسبية السافرة إبان سيادة المنهج الماركسي كمنهج أوحده صحيح في التفكير و البحث.

و لقد انعكست هذه التغيرات بصفة خاصة على علاقة النقاد بالأدب.

و الهدف من البحث هو إظهار مدى انعكاس هذه التحولات على الأعمال النقدية التي تناولت إبداع ثلاثة من كبار الكتاب الروس و أكثرهم إثارة للجدل و هم : جوجول و دوستوفسكي و ليو تولستوي.

لم تتضمن مجموعة الأعمال الكاملة لجوجول التي صدرت في ١٤ جزءا و صدر الجزء الأخير منها في عام ١٩٥٢ بمناسبة مرور مائة عام على وفاته - كل إبداعه و خاصة مؤلفاته الدينية من مواعظ و أفكار فلسفية توضح الطريقة المثلى للحياة في هذا العالم و ممارسة الطقوس الدينية. و مع ذلك نشر في الجزء الثامن من هذه المجموعة - و هو الجزء الذي تضمن " مختارات من المراسلات مع الأصدقاء " - خطاب ف . بيلينسكي متضمنا نقدا لاذعا لكتاب جوجول مما يوضح موقف السلطة من الكاتب.

في سنة ١٩٩٤ صدرت مجموعة أعمال جوجول في ٩ أجزاء و قد تضمنت مؤلفاته التي كتبها في أواخر حياته و منها الصلوات التي ألفها و تعليقاته و ملاحظاته حول شتى الموضوعات

و مسودات أعماله و السطور التي كتبها قبل أيام قليلة من وفاته فضلا عن مقتطفات من الكتب الدينية . و بعض هذه المواد تنشر لأول مرة.

و قبل ذلك صدرت عدة مؤلفات أعادت إلى جوجول مكاتته اللاتقة - فلم يعد جوجول - الذي يحلم بالتأثير على الآخرين بمواعظه و يحلم بأن يكون لهم مثلا يحتذى - يبدو إنسانا مريضا غريب الأطوار ، و بعض مؤلفاته التي كان ينظر إليها على أنها تستحق الرثاء أصبحت مفهومة و محل تقدير .

كانت الأغلبية في الإتحاد السوفيتي لا تعرف عن جوجول سوى أنه كاتب أجاد فن الهجاء و فضح العيوب الإجتماعية و النقائص الإنسانية و أحد كتاب الفكاهة البارزين و لكنها لم تعرف جوجول مفكرا و كاتبا دينيا و مؤلفا للصلوات و المواعظ.

يمكن القول الآن أنه قد وضع في روسيا أخيرا أساس لدراسة إبداع جوجول دراسة موضوعية محايدة.

اتهم النقاد السوفييت دوستوفسكي بأنه كاتب رجعي معاد للاشتراكية و الحركة الثورية و استندوا في ذلك إلى الانتقادات التي وجهها كل من جوركي و لينين له مما انعكس على دراسة إبداعه و تأويله تأويلا مغرضا .

و في السبعينات حدث تحول و تم البدء في نشر أعماله الكاملة في ٣٠ جزءا صدر آخرها في عام ١٩٩٠ و واكب هذا فيضان من الأعمال النقدية التي تدرس إبداع دوستوفسكي و تلقي الضوء عليه.

و في الثمانينات ظهرت مجموعة من الأعمال النقدية القيمة و التي تناولت كثيرا من المواد الموجودة في أرشيف الكاتب من مذكرات و تعليقات المجلات و الصحف على إبداعه و التي كان قد

تم نسيانها أو تجاهلها عمدا ، مما ساعد على الفهم الصحيح لإبداع الكاتب و أوضح أفكاره و وسائل تجسيدها و فهم أفكاره الجمالية و خصائص شاعريته .

و قد تمت هذه الدراسات بحياد و دون تحيز مسبق و مضايقات و ضغوط من جانب الرقابة و عرضت بطريقة مباشرة و دون خوف معتقدات دوستوفسكي الدينية و الفكرية و السياسية.

حاول النقاد الماركسيون الفصل بين تولستوي الأديب و تولستوي المفكر حيث امتدحوا

أعماله الإبداعية بينما انتقدوا معتقداته الفلسفية و الدينية و الأخلاقية و قد رأوا - كما فعل لينين - في نظريته الدينية و الأخلاقية ضعفا يعوق قضية الثورة في روسيا ، مما أدى إلى عدم إعادة طبع مؤلفاته الدينية أو تناولها بالدراسة ، و بعد مائة عام اكتشف النقاد في روسيا أنه لا يمكن الفصل بين تولستوي الأديب و تولستوي المفكر و أن الفلسفة الأخلاقية لتولستوي تحتوي على كثير من المبادئ القيمة التي تحتاجها الإنسانية اليوم. كما أصبح الحديث عن العقيدة و الدين و الله لا يثير الفزع و لم يعد الإلحاد و المادية - مآثرة - مسلما بها.

إن جوهر النظرة الجديدة التي تميز علم الأدب في روسيا اليوم تكمن في تناول الموضوعي بدلا من التحيز الأيديولوجي . و لذلك لم يكن غريبا أن تكون أكثر الفنون شيوعا في روسيا الآن السيرة الذاتية للكاتب التي تتم بطريقة علمية و التأريخ لحياته و إبداعه و طبع المؤلفات مسبوقة بمقالات شاملة و عميقة و بها مقدمات و خاتمة و تعليقات و شروح وافية.

كل هذا بدلا من الانخراط في التفسير و التأويل الذي عادة ما يكون ضيق النظرة و مغرضا.

كما بدأت المعايير الإنسانية و الأدبية التاريخية و الفيلولوجية تحل محل المعايير

السوسيولوجية ( الإجتماعية ) .